مسابقة الأدب العربي لطلبة السنة التوجيهية

« أيام » طه حسين

للدكتور زكي مبارك

تنبيه — حيرة وارتباك — للرحلة الثانية — عمائم وطرابيش وبرانيط — أسرار كتاب « الأيام » — أحزان الطفل الضرير — صور وصفية — أما بعد فهذا كتاب

تنبيه

في العام الماضي تكلمنا عن الجزء الأول من « الأيام » ، والمقرر للمسابقة في هذه السنة هو الجزء الثاني ، وقد نشرته « مكتبة المعارف » بالقاهرة وثمنه عشرة قروش

ويهمني قبل الشروع في الكلام عن الجزء الثاني أن أنبه إلى مسألة طال فيها عتب العاتبين في السنة الماضية ، فقد عابوا عليَّ أن أقول في صحيفة سيارة : إن الدكتور طه رجلٌ ضرير ؛ مع أني قلت بصريح العبارة : إن توضيح الدقائق من كتاب « الأيام » لا يتيسر بغير النص على أن المؤلف يعبّر عن أغراض لا تتجسّم لغير المكفوفين ، والنقد يحتم هذا تحتيماً ، ولو سكتنا عن هذه الناحية لضاع الغرض من شرح مواطن القوة والضعف في تلك المذكرات

أنا أريد أن أعاون طلبة السنة التوجيهية على فهم الكتب المقررة لمسابقة الأدب العربي ، ولا يتم ذلك بدون إرشادهم إلى طريق الفهم المنشود ، ومؤلف « الأيام » ضرير ، ومراعاة هذا الجانب من شخصيته واجب مفروض ، لنعرف كيف واجه دنياه عن طريق السمع واللمس والإحساس

يضاف إلى هذا أن الدكتور طه أكبر من أن يتأذى بالنص على أنه ضرير ، فهو يقول ذلك في جميع صفحات « الأيام » ، وهو يعرف من أصول النقد الأدبي ما لا يعرف أولئك العاتبون ، ويعرف أن الكلام عما في كتابه من محاسن وعيوب لا يتفق مع التغاضي عن تلك الحالة الشخصية ، وهي حالة لا تنقص من منزلته الأدبية بأي حال

طه حسين ضرير ، كما يقول ، وقد سايرنا طفولته في السنة الماضية ونحن ننقد الجزء الأول ، فكيف نراه في حداثته ونحن ننقد الجزء الثاني ؟

بل هي نزعة إلهية تتأثر بها كل قوانا النفسية لتستنهض أكثر الفضائل من شجاعة وصدق ، وصراحة وجد ، وضبط للنفس ، وإيثار ووطنية وما إلى ذلك من الخلال الآدمية التي يأخذ بعضها برقاب بعض لتتحقق مشيئة الله حين أراد أن يكرم بني آدم

وهذه الكرامة التي أدعو شبابنا إليها غنية عن التعريف والوجاهة ، غنية عن الأحساب والأنساب ، مادامت تستمين بالإيمان بأن الإنسان الحقيق بإنسانيته ، هو من يصدر عنه دائماً الخير وطيب العمل

وإني حين أرسل صوتي إلى شبابنا ليحصر أهدافه في دوائر الأخلاق والدين والكرامة الإنسانية فإني على يقين من أنه بذلك سيستصلح لنفسه عالماً نيراً مسعداً ، فما عالمنا إلا مظاهر نقوصنا وأخلاقنا تتجلى على صفحات هذا الوجود

وإن ما أرجوه لشبابنا الفتيان هو نفس ما أرجوه لفتياتنا . على أنهن حقيقات بأن يتذكرن مملكة البيت ، وما تقتضيه من أخلاق وسلوك ونزعات مما ينبغي أن يكون هدفاً للفتاة .

وحسبي أن أشير إلى أنه من واجب فتياتنا المصريات والعربيات ، أن يحذرن ما انزلق إليه الكثيرات من فتيات الغرب وخدعن في قيمته ، حين انحرفن عن هدف الحياة العائلية . فإسعاد العائلة في عائلها ، وفي حسن تنشئ صغارها ، وإمداد وكرها بما يرفع النفوس ويقومها ويقويها ، هو أجدى على الأمة من كل ما تقوم به المرأة خارج البيت

وقصارى القول أرجو إلى شبابنا أن يفسحوا في صدورهم ، وأن يحفظوا في ألبابهم وتفكيرهم مكاناً للمعنويات ، ومجالاً للحياة الروحية ، فلا يقصروا همومهم على مطالب الثروة والدأب فيما يشتهون من متع الحياة وشهواتها

وإنهم ليحسنون مهما اختلفت عقائدهم أن يقفوا خاشعين مستبشرين في كل صباح ليرسلوا من قلوبهم وعلى ألسنتهم صلاة عربية مبينة حين يقولون : « اهدنا الصراط المستقيم ، صراط الذين أنعمت عليهم ، غير المغضوب عليهم ، ولا الضالين »

منصور فهمي

حيرة وارتباك

فى هذا الجزء بداية تقع فى ست صفحات ، وهى غاية فى الضعف عند من يجهل ، وغاية فى القوة عند من يعرف ، وربما كانت أعظم صفحات الكتاب ، برغم ما فيها من غموض والتواء

وترجع عظمة هذه الصفحات إلى أنها تمثل ما يعانى الطفل الضرير من حيرة وارتباك ، حين ينتقل من أرض إلى أرض ، ومن مكان مألوف إلى مكان مجهول

كان الطفل يعرف داره بالريف ، يعرفها بيديه ، فلم تخف عليه خافية من ملامح النوافذ والأبواب والسطوح ، وكان يجد الأنس كل الأنس فى جسّ تلك الأشياء باهتمام والتفات ، وسنرى كيف يفرح حين تسمح الظروف بأن يداعب الصندوق الذى أرسلته أمه إلى القاهرة لينتفع به أخوه ، فسيكون ذلك الصندوق مَراداً لسياحات كثيرة يتمتع بها الطفل حين يشاء ، فيجلس عليه مرة ، ويختبر أدراجه بيديه مرات ، ولا يفوته فى هذا الموقف أن يشير إشارة حزينة إلى أن أمه كانت تضع حُليّها فى هذا الصندوق يوم كان لها حُلىّ ، فنعرف أن أمه وقع لها ما يقع لأمهاتنا فى الريف من بيع « الصِّيغة » فى بعض الظروف ، ولأمهاتنا هنالك متاعب تستحق التاريخ

ترك الطفل داره بالريف ، وأقبل على داره بالقاهرة ، فكيف كان حاله فى داره الجديدة ؟ كيف ؟ كيف ؟

أقام أسبوعين وهو شارد اللب حيران : فهو يلمس جدراناً لا يعرف من أحوالها غير أوهام ، ويسمع أصواتاً لم يكن له بمثلها عهد . ألم يزعجه الصوت المجهول ؟ وأىّ صوت ؟ صوت كريه بغيض لا يصل إلى أذنيه إلا بعد أن يلفح وهجُ النار وجهه من قرب ، فما ذلك الصوت ؟ سيعرف أنه قرقرة النرجيلة ، فيهدأ ويستريح بعد أن مسه الخوف ، وبعد أن طال تفكيره فى السؤال ولم يسعده غير الاستحياء

ولم يكن ذلك كل ما عانى فى هذين الأسبوعين ، فقد آذاه ما يحيط بداره الجديدة من روائح قذرة بغيضة لا تخلو من تعقيد . وسنعرف فيما بعد كيف صار يستبشر بهياج تلك الروائح ، لأن هياجها أثرٌ من وقدة الشمس ، وتلك الوقدة بشيرٌ بقدوم الصيف ، وهو فى الصيف يرجع إلى داره بالريف ، فيستريح من الأزهر والأزهريين ، فقد نصّ بعبارة صريحة على أن سجنه فى قفص الأزهر قد طال ، وأنه يرجو الخلاص بالانتساب إلى الجامعة المصرية ، عليها أزكى التحيات !

المرحلة الثانية

حين تكلمنا عن الجزء الأول من « أيام » طه حسين فى السنة الماضية كنا نجاريه فى المرحلة الأولى من حياته ، وهى تبدأ باليوم الذى عرف فيه كيف يختزن الذكريات ، وتنتهى باليوم الذى تأهب فيه لطلب العلم بالأزهر الشريف

وفى هذه السنة نجاريه فى الجزء الثانى وهو المرحلة الثانية ، وهى تبدأ باليوم الذى فرح فيه بدخول الأزهر وتنتهى باليوم الذى فرح فيه بالتحرر من الأزهر . وهو مع ذلك سيحدثنا فى الجزء الثالث أن صلته بالأزهر بقيت إلى أن تقدم لامتحان « العالمية » . وسنعرف أن اللجنة التى أدى أمامها امتحان العالمية قضت فى أمره بما لا يحب ، لأنها لم تستطع النفاذ إلى مواهبه العقلية ، أو لأن الأخبار كانت تواترت بأنه لا يحترم الأزهريين ، أو للسبب الذى حدثنا به فى سنة ١٩٢٧ ، فقد أخبرنا أن يداً أرادت أن يسقط فى امتحان « العالمية » ، وله على تلك اليد شهود جَبُن منهم من جبن ، وشَجُع من شجع ، والأمانة للتاريخ توجب أن نقول إن الدكتور طه حدثنا أنه حين أراد الطعن فى نزاهة لجنة الامتحان لم يجد من يجرؤ على الشهادة بالحق غير رجلين اثنين : سيد المرصفى ومحمد الابيارى

وإنما تعجلنا فأشرنا إلى كلام سيكون بداية الجزء الثالث ليعرف القراء كيف يتبرم الدكتور طه بماضى الشيخ طه ، وكيف رضى الانتقال من الشرق إلى الغرب بلا توديع ولا تسليم ، لينتقم ممن ظلموه ، أو ليصير رجلاً من طلائع الجيل الجديد ، ومن دعاة المدنية الحديثة ، بلا تحفظ ولا احتراس

عمائم وطرابيش وبرانيط

من واجب النقد الأدبى أن يبحث عن الأسرار المطوية فى ثنايا الحروف ، فما تاريخ طه حسين من الوجهة الفكرية والذوقية وهو يواجه دنياه فى المرحلة الأولى والثانية ؟

فى الجزء الأول يرى المجد مصوراً فى « العريف » وهو معلم الأطفال ، ثم يراه مصوراً فى « القاضى الشرعى » صاحب العمامة والجبة والقفطان

وفى الجزء الثانى نراه على عهده الأول ، نراه يحترم العمائم ثم ننظر فى الصفحات الأخيرة فنراه يعلن أنه « ظفر بشئ طالما تمناه ، وهو أن يتصل ببيئة الطرابيش »(١)

فا سر هذا الانتقال ؟

كان يعرف أن أمور الدولة إلى أصحاب الطرابيش ، ولعله سمع أن ناساً اقترحوا على الشيخ محمد عبده أن يلبس الملابس الأفرنجية ليمكن أن يصير من الوزراء ، كما صار الشيخ سعد زغلول بعد ذلك من الوزراء

وقد صبر الدكتور طه على عمامته بعد فراق الأزهر بأعوام قصار أو طوال ، فأدى امتحان الدكتوراه بالجامعة المصرية فى سنة ١٩١٤ وهو معمم ، وأقلته الباخرة من الاسكندرية إلى مارسيليا وهو معمم ، ولكن ركاب تلك الباخرة قد التفتوا مندهشين إلى شئ يقع فى البحر وقد ألقاه صاحبه بعنف ، فا ذلك الشئ ؟ هو عمامة طه حسين !!!

وقد تحدث الدكتور طه مع أحد الصحفيين بأنه لم يندم على شيء كما ندم على رمى عمامته فى عرض المحيط ؛ ولكن الواقع غير ذلك ، الوقع أن الدكتور طه وُلد وعلى رأسه « برنيطة » وقد حدثنى مرة أنه يرجح أن أسلافه القدماء كانوا من اليونان ، فإن لم يصح ذلك فهو فى نزعته اليونانية مَدين لرواية ألفها الشاعر أحمد شوقى واسمها « ورقة الآس » وفيها تمجيد لليونان (٢)

ولهذا وذاك صلة بانتقال الرجل من حال إلى أحوال ، فقد انحدر من أسرة أكثرها مشايخ ، ولكنه مع ذلك يحيا حياة مدنية منقطعة عن حياة المشايخ تمام الانقطاع . والنص على هذا الانقلاب واجب ، لأنه يفسر ما خفى من أسرار الوحى فى اتجاهاته الأدبية والاجتماعية

ولكن هذا الشيخ اليونانى بقيت فيه ملامح من ذلك الشيخ الأزهرى ، فا شاع يوماً أنه يدعو إلى اللغة العامية ، كما يصنع بعض المتظرفين الثقلاء ، ولا جاز عنده أن تكون العقيدة الإسلامية مجالاً للتشكيك والإيذاء ، وإن وقعت فى بعض مؤلفاته عبارات تغاير المألوف من التعابير الدينية

هذا رجل بعيد الصلة بين حاضره وماضيه ، لأنه سريع التقفز والوثب ، ولأنه على وفاق مع ضميره الفنى والأدبى ، فهو يسايره إلى حيث يريد . وكل شيء عنده جائز ، إلا العدوان على اللغة العربية ، أو التحرش بالعقيدة الإسلامية ، فهما عنده فى مقام القدسية والجلال !

وفى كتاب الأيام سطور تفصح عن أسباب القلق فى حياة الدكتور طه حسين ، فهو يجزع من العزلة ويفزع من الانفراد ، لأن الاتصال بالناس هو أداته فى الاتصال بالحياة الخارجية ، ومن هنا نجده حريصاً أشد الحرص على أن يكون لاتصاله بالناس ضروبٌ من الضجيج والعجيج ، لينجو من متاعب العزلة والانفراد ، وهذا هو السر فى انتقاله من رأى إلى رأى ، ومن حزب إلى حزب ، ومن ميدان إلى ميدان !

كان مع الدستوريين وهم يقاتلون الوفديين ، وكان مع الوفديين وهم يقاتلون الأحزاب أجمعين ، فإذا انجلت المعارك السياسية وانقطع إلى الحياة العلمية كان من الواجب أن يخلق أزمة جامعية ، فإذا نُقل من الجامعة إلى وزارة المعارف كان من الحتم أن يخلق مشكلة فى وزارة المعارف

ومع أن الدكتور طه عذراً فى التخلف عن شهود بعض المآتم وحضور بعض الحفلات ، فهو يشهد جميع المآتم ويحضر جميع الحفلات ، ليطرد عن نفسه عناء العزلة والانفراد

فالذى ينظر إلى الأمور نظرة سطحية يحكم بأن الدكتور طه رجل متغيِّر متحوِّل ، أما الذى ينظر نظر المدقق فيرى التغيّر والتحول من صور الثبات والاستقرار بالنسبة إليه ، لأنهما يؤديان وظيفة أساسية فى حياته اليومية !

ومن الجائز أن يكون لهذه النزعة دخلٌ فى هيامه بالفروض والحدُوس وهو يساور الأبحاث الأدبية والتاريخية ، فؤلفاته فى أغلب أحوالها قليلة التعمق ، لأن التعمق يوجب أن يقف عند البحث الواحد عاماً أو عامين ، والوقوف يضايقه بعض الشيء ، لأنه يصرفه عن التحول والانتقال بين المعانى والآراء !

زار الدكتور طه باريس وأنا هنالك ، فلما مضيت للتسليم عليه أدهشنى أن أجده فى غرفة تطل على ميدان « الأوبسرفتوار » وهو ميدان صخّاب ضجّاج ؛ فقدّرت أنه يريد أن « يسمع » باريس بعد أن فاته أن « يرى » باريس !

ويحدثنا الدكتور طه فى « الأيام » أنه كان يأنس أنساً شديداً بمراسلة إخوانه وهو فى الريف ، وتفسير ذلك سهل ، فهو يلقى بالرسائل من يشاء من الإخوان

---

(١) الأيام ج ٢ ص ٢٠٠

(٢) حدثنى الدكتور طه بذلك فى أحد أيام سنة ١٩٢٢

ويحدثنا أنه حين رجع إلى بلده بعد قضاء بضعة أشهر في الأزهر أقام معركة حول فكرة التوسل بالأولياء، فما سرُّ ذلك؟ لم يُرد في الواقع غير خلق دنيا يراها عقله، وإن لم ترها عيناه!

وقد سجّل عتبه على أخيه، الأخ الذي كان يتركه وحده ويمضي للسمر مع الأصحاب والشجراء، ولو أن ذلك الأخ تأمل قليلاً لعرف أن أخاه الضرير أحوج الناس إلى الأنس بالأسمار والأحاديث!

وتأليف كتاب «الأيام» هو في ذاته تسلية لهذا المؤلف؛ فهو يخلق لخاطره أجواء جديدة تحتشد فيها مواكب من السخب والضجيج، وإلا فكيف اتفق أن لا يفكر في إحياء تلك «الأيام» إلا وهو في المصايف الفرنسية، حيث يُشغل عنه أهله بطرائف تلك المصايف، ولا يبقى له إلا اجترار ما اختزن من الذكريات؟

وقد شهد الدكتور طه على نفسه في مواطن كثيرة من كتاب «الأيام» باضطراب العقل؛ وأقول إن هذا الاضطراب هو مصدر قوته الذاتية، لأنه من مظاهر الحيوية، ولأنه الشاهد على أنه من كبار الأحياء

وهل كان من العبث أن تنقل الطبيعة بين فصول مختلفات أشد الاختلاف منها الصيف والشتاء؟

هذا رجل حيّ، يعد ويُخلف، كما تعد الطبيعة وتخلف؛ ويستقيم عند الخوف كما تستقيم الطبيعة عند الخوف، ولا يتنصّر إلا عند الاطمئنان إلى الأمان

وسر القوة عند هذا الرجل أنه كما وصفت، فهو من دعاة الثورة إن اتسع المجال للثورة، وهو من دعاة الهدوء يوم يحس بأن المجال لا يسمح بغير الهدوء، ولذلك شواهد يعرفها جميع الناس.

هو طه حسين، ولن يكون غير طه حسين. وكيف يكون رجلاً آخر، وهو ليس برجل آخر؟ تلك إذن قضية، ولم تكن له قضية، وكيف تكون له قضية، وهو أعظم من أن تكون له قضية؟!

أسرار كتاب الأيام

نحن مع الدكتور طه في المرحلة الثانية من حياته الشخصية؛ وكلمة «الشخصية» لها مدلول؛ فهو في الجزء الثاني من الأيام لا يزال صبياً وفي أحلام الصبيان؛ والصبي لا يخرج من الحياة الشخصية إلى الحياة الاجتماعية إلا في نطاق محدود

والعجب كل العجب أن يستطيع الرجل الكهل وصف حياته وهو طفل بتلك الدقة البديعة المثال

تكلم طه حسين عن حياته الأولى في الأزهر بعد أن فارقها بنحو أربعين سنة، فكيف اختزن تلك الذكريات في أمد كاد يربو على أربعة عقود؟

الشيخ طه هو الذي كتب «الأيام» لا الدكتور طه، فهي صور فطرية لأحلام طفل كانت دنياه محصورة بين حيّ الأزهر وحي الجمالية، ولا يكاد قارئ هذه الذكريات يصدق أن كاتبها تخرج في السوربون وإن كانت السوربون هي السبب في أن يجيد مثل هذا القصص الطريف

جمال هذه الذكريات يرجع في جملته وتفصيله إلى ما انطوت عليه من الصدق. والكاتب يقول إنه ضرير، ولو سكت عن هذه الناحية لأفصحت عنها الشواهد؛ فهو لا يحدد أي مكان إلا بالنص على أنه من عن يمين أو عن شمال؛ وهو يصور المعقولات بصور المحسوسات، لتكون مما يُلمس أو يذاق، فهذه نحكة غليظة، وذاك ابتسام سخيف؛ وهو لا يذكر من عذوبة الشاي إلا أنه كان يوضع فوق ماء له أزيز عند اشتداد الغليان؛ وهو لا يقول إنه كان يتسمع أحاديث الجيران وإنما يقول إنه كان يمد أذنيه مداً ليسمع أو ليلمس تلك الأحاديث؛ وهو لا يقول إن أخاه كان يتركه إلى أن يعود، وإنما يقول إن أخاه كان يلقيه كما يلقى المتاع؛ وهو لا يقول إن الليل يستر الأشياء والأحياء وإنما يقول إن الليل: «يمس بيده المظلمة العريضة هذه الأشياء وهؤلاء الأحياء» ويؤيد هذه اللفتة قوله في وصف بعض الأشخاص:

«كان نحكه غريباً مضحكاً حقاً، فقد كان يبدأه عالياً ثم يقطعه، ويضحك صامتاً لحظة ثم يستأنفه عالياً، ثم يقطعه، ويمضي فيه صامتاً، ثم يستأنفه، وهكذا»[1]

وهذه صورة لا تتفق لغير من يعتمد على السمع في وصف بعض الأشياء

وهنالك صورة ثانية تؤيد هذه اللفتة، وهي قوله بأنه «كان

(١) الأيام ج ٢ ص ٦٦

يجد للظلمة صوتاً يملأ أذنيه ، صوتاً متصلاً يُشبه طنين البعوض لولا أنه غليظ ممتلئ »[1] ، ولهذه الافتة أمثال وأمثال ، كأن يسجل بنفسه أنه كان مفتوناً بعد درجات السلالم ، وكأن يقول إنه كان يطرب لأصوات اللاعق وهى تداعب الأكواب ، وكأن يقول فيمن يصف امرأة حسناء : إنه كان يفصلها بيمينه تفصيلاً ، ويحللها فى نفسه تحليلاً ، ويجردها من ثيابها تجريداً ! وكأن يقول إن الروائح الكريهة كانت تنعقد فتؤلف من فوق رأسه سحاباً رقيقاً ولكنه متراكم قد غشى بعضه بعضاً[2] وكأن يقول إن مواطئ أقدامه كانت تعتدل حيناً وتعوج مرة أخرى[3] فذلك كله يشهد بأن « اللمس » أداته الأولى فى الإحساس

أحزان الطفل الضرير

وفى كتاب الأيام صفحات تقهر عَصِيّ الدمع ، وهى صفحات Caractéristiques بالنسبة لذلك الطفل ، فهو يعدّ على أخيه جميع الهفوات مع الصفح الجميل ، وهو يذكر بعد أربعين سنة أنه لم يكن يتناول طعامه بحرية ، وأن نصيبه من ماء « الطُّرشى » لم يكن له وجود ، وأن الحديث على مائدة الفول المدمّس لم يكن يزيد على كلمة أو كلمتين ، مع أن الطفل الضرير يحتاج إلى الكلام أشد الاحتياج ، بدليل أنه يحادث نفسه بصوت صخّاب حين لا يجد من يحادثه من الرفاق

ولم يقف بلاء ذلك الطفل عند هذا الحد ، فقد نص على أن فريقاً من أشياخه بالأزهر كانوا يقولون له حين يوجه إليهم بعض الاعتراض :

« اسكت يا أعمى ، اسكت يا أعمى »

وكان يعرف أنه أعمى ، مع الأسف الوجيع ، ومع العجز عن دفع ذلك الإسفاف

واتفق فى تلك الأيام أن يتصل ذلك الصبي بشيخ من أصحاب المواهب ، وهو الأستاذ سيد بن على المرصفى ، وهو رجل ما ذكرته إلا رأيت أنه حجة مصر فى العبقرية العربية

والدكتور طه يقول إنه كان يفهم دروس الشيخ سيد المرصفى فى شرح الكامل للمبرد ، وذلك عنده سبب تلك الجاذبية ، ولكنى أرجح أن السبب يرجع إلى أن الشيخ المرصفى كان ينشد الشعر بأساليب موسيقية تخدّر الشامتين ، فلم يكن من العجب أن يستريح إلى إنشاده طفل فى حال طه حسين ، وهو يواجه الوجود بأدوات أهمها السماع

وأقول إن الشيخ المرصفى كان غريباً فى الأزهر وكان تلاميذه غرباء ، وبهذا أصبح طه حسين من المنبوذين فى أنظار « العلماء » وصار من حقهم أن يهينوه طالبين بالتصريح أو التلميح

ثم تمضى الدنيا بالطفل الضرير إلى ما لا يريد ، فيشيع بعض حاسديه أن يرى ما لا يرى الأزهريون من كفر « الحجاج » وهو أعظم رجل تولى أمور العراق فى نظر « العقل » لا فى نظر « التاريخ »

وبهان الطفل الضرير لهذه اللمحة الفكرية ، فيمسى وهو زنديق فى أنفس الأزهريين ، وهم أصحاب الرأى الرسمى فى الكفر والإيمان ، ثم تكون لذلك عواقب يعانى متاعبها إلى اليوم

صور وصفية

فى الجزء الثانى من الأيام ألوان من الصور الوصفية ، ولا تظهر قيمة هذا الكتاب إلا لمن يلتفت إلى تلك الألوان

وأجمل صور هذا الكتاب ما جاء فى وصف الشيخ سيد المرصفى ، وهى صورة جدية فصلت شمائل ذلك الشيخ أجمل تفصيل . والحياة الأزهرية بمزاياها ونقائصها نالت حظها من التدوين فى الحدود التى تصورها الطفل ، وقد عاش فى بيئة مولعة بتعقب العيوب ، وهو لهذا لم ير من الأزهر ورجاله غير ما يؤذى النفس ، ويثير البغض ، وما أراه يلتفت إلى محاسن الأزهر إلا فى أندر الأحيان

وحياة « الرَّبع » ظفرت بألوان لطاف ظراف هى غرة الكتاب ، وربما جاز القول بأنها من أطايب الأدب الحديث

والمجون له فى هذا الكتاب مكان ، ولكنه مجون ملفوف ، إلا حكاية « أبو طرطور » فهى من المجون المكشوف ، وهو مكروه على أرجح الأقوال !

وعنى الطفل بوصف أخيه عناية فائقة ، فصوره فى هزله وجده وغضبه ورضاه ، بأسلوب يغلب عليه العتاب

وتحدث الطفل عن أبيه حديث اللوم فى حين وحديث الحمد فى أحيان . أما حديثه عن أمه فهو من أروع صور الوفاء . ويظهر أنه لم يحب أحداً بلا قيد ولا شرط كما أحب أمه الغالية ، ولم يثق بأحد كما وثق بقلبها الرفيق . ولا تقل إن الذوق هو الذى نهاه عن أن يتحدث عنها كما يتحدث عن أبيه وأخيه ، فذلك كاتب وصّاف قد يستبيح فى الخروج على الذوق ما لا يباح ، وإنما الوجه

(١) الأيام جـ ٢ ص ٥٥
(٢) ص ٤ (٣) ص ٦